تجلّيات المؤتلف الإنساني في الأديان العالمية

عزالدين عناية ■

تتنازَع الأديانَ في التاريخ المعاصر جملةُ من القضايا ذات الطابع الداخليّ، تَحُول دون الانتباه إلى ما هو كوني وجامع في معظم الأحيان. فقد ترسّخَ ذلك المسْلَك نتيجة عوامل عدّة منها: سيطرة المركزية الدينيّة على التصوّرات الدينيّة، وغياب الثقة اللازمة في الآخَر لطرح قضايا جامعة، وافتقاد رؤية في بعض الأديان للتعاطي مع التقاليد المغايرة، سواء أكان بالاستيعاب أم بالحوار أم بالتعايش. لكنّ ما شهده العالم خلال العقود الأخيرة ـ من تقاربٍ وتداخُلٍ وتفاعُلٍ ـ بات يملي ضرورةَ تجاوُزِ أساليب النظر والعمل السابقة، من أجل خلْق رؤيةٍ جامعة، أساسُها الائتلاف والتشارك والتحاور.

لا يعني ذلك أنّ الرؤية الكونيّة في الأديان كانت مفتَقَدة، أو كانت غائبة؛ بل لطالما نشطت ضمن أهداف مصلحيّة ضيّقة، أو توظيفات محدَّدة، سواء بقصد الاختراق للآخر، أو الهيمنة عليه، أو توجيه مساره لصالح الذات. وأمّا الرؤية التشاركية المبنية على الانفتاح على الآخر ـ والتي تقطع مع البراغماتية الضيّقة ـ فقد بدأت

■ أستاذ تونسي بجامعة روما ـ إيطاليا.

تُطلّ مع بروز نِديّة وتساوٍ يُعربان عن نضجٍ ووعيٍ. لقد أَمْلت العولمةُ على الأديان ـ جرّاء التحدي الماثل أمام الجميع ـ التفكيرَ فيما يُقلِقها جميعاً، وفيما تطمح إليه من أهداف سامية[1]. فليس غرضُ الدين ـ مَهْما ضاقت رؤيته الكونيّة ـ الاكتفاءَ بتوسيع دائرته العَقَدية، أو كسْب مهتدين إلى صفّه، من خلال جلْب أتباع جدد إلى دائرته ومعتقَده، بل تحضُر أهدافٌ أخرى جامعة بينها، تتخطّى ذلك الهدف «التبشيري» الطاغي، وتتمثّل في التأصيل لكيان الإنسان الحرّ، والحفاظ على كرامته بمنأى عن معتقده وملّته. ومن هذا الباب حصلَ تحوّلٌ في تقدير التنوّع والاختلاف والتمايز، بوصفها عناصرَ لازمةً في المجتمع البشري، تُعرِب عن ثراء الإنسان وغناه الروحيّ والحضاريّ والثقافيّ.

عودة لكرامة الإنسان لمحاصرة الصراع المقيت

لقد أبانت تجاربُ الصراع الدينيّ ـ سواء أكان في شكله الداخلي بين مذاهب الدين الواحد، أم بين الأديان كمنظومات عَقديّة تشريعيّة معبِّرة عن خاصيات تكتّلات حضارية ـ أنّ الصراع هو مَهْلكة ومضرّة للجميع؛ لِما يخلّفه من ضغائنَ ومضارّ ماديةٍ ومعنويةٍ، لا تزيد رسالاتِ الأديان إلّا وَهَناً وإنهاكاً وقصوراً، وأنّ تقليص منسوب تلك الصراعات والسعي لتفاديها قدر الإمكان ـ بأساليب ذكية وجريئة ـ من شأنه أن يجعل الأديان أكثر مناعة، وأبلغ رسالة في نشر القِيَم السامية التي تستبطنها. لذلك غدا الوعيُ بتفادي الصراع ـ عبر الحوار والتشاور والتفاهم، ومحاولة تسوية الخلافات بما يرضي الطرفين أو الأطراف المتنازعة ـ هو السبيل الأسلم والأجدى. لقد بلَغَت الأديانُ هذا الوعيَ جرّاء تمعّنٍ داخليّ في التجارب السابقة، وما خلّفته من جروح غائرة في عقول المؤمنين ووعيهم. وأمست الأديان ـ بدل أن تشحن عقول أتباعها بالتحفّز والتربّص للآخر ـ تُلقّن أتباعها أسلوب اللّين والصفح والسماحة والتآخي، من خلال وضع الإنسان في مركز اهتمامات الأديان، بعد أن كانت الغلبة العَقَديّة هي الطاغية على الوعي الديني في أوساط المؤمنين.

1 ـ Ugo Dessi, *Religioni e globalizzazione*, Carocci editore, Roma 2019, p. 46.

لا يعني ما نقولــه أنّ الأديــان والمذاهب جميعها قد هجــرت تطلّعات الهيمنة، واستعاضت عنها برؤى ائتلافية أساسها الودّ والتفاهم؛ ولكن رغم ذيول التنظير والتحشيد للصراع والتربّص والسيطرة والتغوّل ـ التي لا تزال حاضرة بين مجموعات متشدّدة داخل بعض الأديان ـ فقد أمست هامشيّة، ولا تُعبّر عن جوهــر ما يحدث داخــل جمهــور المؤمنين والقيادات الرشــيدة للأديان، بمسعاها الجادّ من أجل خير البشرية جمعاء، وهو ما يَشي بتحوّلٍ عميقٍ في الأديان، يُعــرِب عن تبدُّلٍ فــي براديغمات التواصــل مع المغاير الديني، ينحو نحو الرشــاد والســداد. نلمس تطوّر هذا التحوّل في الوعي الديني الجمعــي، وفي الســلوك العملي، داخل تقاليد دينية عدّة، وبتْنا نرى مجتمعاتٍ كانت في الســابق موحَّدة التقاليــد الدينيــة والمذهبية تتحوّل إلى مجتمعات تعدّدية منفتِحة على المغاير الدينيّ بشــكل مبهر. يمكــن في هذا الســياق الحديث عن نوعين من المجتمعات نجحت نجاحاً لافتاً في هــذا الانفتاح الدينــي وهما مجتمعات الخليج العربي والمجتمعات الغربية. صحيح ثمةَ تغايرٌ بين التجربتين في التعاطي مع الآخر، غير أن البارز في كلتيهما تلك الروح الكوسموبوليتية الجديدة، التي باتت تميز المجتمعات المعاصرة، والتي تملي بقوة ضرورة تحوير أساليب النظر السابقة[2].

يقتضي ذلك الوعي الائتلافي المحمود ـ الذي بدأ يصوغ دعائمه ويرسم مساراته ـ رعاية ذلك المكتَسَب بين الأديان وداخل المجتمعات، والعملَ على تطويره عبر اللقاءات والمنتديات المشتركة؛ لتذليل كلّ ما يحول دون بلوغ أهدافه السامية.

يقتضي ذلك الوعي الائتلافي المحمود ـ الذي بدأ يصوغ دعائمه ويرسم مساراته ـ رعاية ذلك المكتَسَــب بين الأديان وداخل المجتمعات، والعملَ على تطويره عبر اللقاءات والمنتديات المشــتركة؛ لتذليــل كلّ ما يحول دون بلوغ أهدافه الســامية. وما نشــهده من ثنائيات في الحوار مثل «الحوار الإسلامي المســيحي»، أو «الحوار الهندوســي البوذي»، أو ما يتّخذه أحياناً من طابع

2 ـ Ugo Dessi, *Religioni e globalizzazione*, p. 45.

حضاري؛ مثل «الحوار العربي الأوروبي»، أو «حوار الشمال جنوب» أو «الشرق غرب»، هي مبادرات في حاجة إلى دعْم وتوسيع وتطوير؛ حتى تشمل مختلف التقاليد الدينية والعائلات الحضارية؛ لأنّ مقصد الحوار ليس الاكتفاء بتسوية خلافات محدَّدة؛ وإنّما غرضُه الأبعدُ هو تنقية كلّ ما يعكّر صفو العلاقات بين أفراد الأُسرة البشرية.

لا شكّ أنّ كلّ دين ذي صبغة عالمية يملك تقريباً موروثاً في التعاطي مع الآخر، وفي التعامل معه، وفي النظر إليه، يُعَدّ الأرضية والأساس للتعايش مع ذلك المغاير. لكن ما يُلاحَظ في ذلك الموروث الذي يُستَلهَم منه الاحتضان والقبول للآخر طغيان النزعة الصوفية عليه، أكثر من احتكامه إلى منظومة تشريعيّة وإلى خطّة عمليّة واضحة. فالغريب والشريد والجار وعابر السبيل ـ وأحياناً تحت عنوان المقيم والمهاجر والوافد والنزيل والدخيل ـ غالباً ما شملت تلك الأصنافَ رعايةُ الدين المهيمِن، ولطالما وَجدت في النصّ المقدّس المرجعي وفي سيرة القادة الدينيين ما يبرّر حقوقها، ككائنات ينبغي تكريمها ورعايتها الرعاية اللازمة، وإن خَالفَ معتقدُها معتقدَ الجماعة، ليبقى ذلك المشترك بين الجميع مبنيّاً على التماثل والمضاهاة في الخَلق. وقد عبّر تراثنا الإسلامي عن تلك المضاهاة فيما أوجزه قول الإمام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) في وصيته لمالك بن الأشتر: «وأشعر قلبك الرّحمة للرّعية والمحبّة لهم واللّطف بهم؛ فإنهم صنفان: إمّا أخ لك في الدّين، أو نظير لك في الخَلْق»؛ ولو نظرنا إلى الأمر في حدود الأديان الإبراهيمية نجد تعاليمَ سماويةً عدة تضمن حقوق ذلك النظير في الخَلْق، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]، وورد في التوراة «إذا أقام في أرضكم غريب فلا تظلموه، وليكن لكم الغريب المقيم عندكم كالمواطن. تحبّه كما تحبّ نفسك؛ لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. فأنا الربّ» (اللاويون 19: 33 ـ 34)؛ وورد في العهد الجديد أيضاً: «ولا تغفلوا عن ضيافة الغرباء، فبها أضاف بعضُ القدماء ملائكةً دون أن يعرفوا» (الرسالة إلى العبرانيين 13: 2).

الحراك الدينيّ العالميّ مدعاة لإعادة ترتيب البيت

لعلّ تداخُلَ حدودِ الجغرافيا الدينيــة التقليدية في التاريخ الحديث بفعل الهجرة ـ التي باتت تمسّ مجمل الأديان كما تُبيِّن دراسات «حراك الأديان»[3]، لِتبلغ في أوساط المسيحيين (49 بالمئة)، وفي أوساط المسلمين (27 بالمائة)، ثم بدرجة أقلّ في أوســاط الهنــدوس (5 بالمائة)، والبوذييــن (3 بالمائة)، واليهود (2 بالمائة) ـ يملي ذلك ضرورة صياغة رؤية دينية أكثر رحابة وأكثر سماحة، لا سيما وقد أضحت التشــريعات المدنية متجاوزة التمييز أو ساعية لإلغائه والتقليص منه. وهو ما يُملي على الأديان الخروجَ مِنْ ضِيق تشريعاتها أحياناً ومُعتادهــا التصوّري، الــذي يمثّل المؤمن والتابع المحور الرئيس وما دونــه خارجها. أمام تلك التحولات تبقى الأديانُ مدعوّةً بقوّة إلى فسْح مجال الحرية للتعبّد والاعتقاد المغايرين بما يفوق ما كان معمولاً به في عهود سالفة.

هل تستطيع الأديانُ الخروج من عُزْلتها اللاهوتية والتصورية إلى رحابة النظر الكوني بناءً على مؤتلف إنساني جامع؟ تبدو بعض الأديان مختزِنة لقدرة في هذا الاتجاه، جراء ما تملكه من إمكانيات ومن تجارب تاريخية سابقة.

هل تســتطيع الأديانُ الخروج مــن عُزْلتها اللاهوتية والتصورية إلى رحابة النظر الكوني بناءً علــى مؤتلف إنســاني جامــع؟ تبدو بعض الأديان مختزِنة لقدرة في هــذا الاتجاه، جراء ما تملكه مــن إمكانيات ومن تجــارب تاريخية سابقة، ولكنْ ـ بفعل بنائها الأنطولوجي الاستبطاني ـ تبدو مفتقرة إلى تلك النظرة. وهو ما قد يشكّل الحديث عن مؤتلف إنساني بالنسبة إليها نوعاً من الحديث غير المفهوم، لكنّ ذلك لا يعفي تلك الأديان من مســؤولية بناء ميثاق جامع، يهدف إلى ترسيخ كرامة الإنسان. فما عاد يفيد الأديانَ في شــيء التغاضي عن آثار العولمــة؛ فالكل بات معنيّاً بآثارها الســلبية والإيجابية علــى المخــزون الروحي للبشــرية جمعاء؛ ذلــك أن التفكير الانعزالي ـ أو لِنقُلْ النظر في حدود الجغرافيا الدينية التقليدية ـ ما عاد

3 ـ *Faith on the Move*, Pew Research Center, 2012.

بوســعه تذليل تحديات الإيمان بوجه عام؛ لأنّ كل إنسانية بالضرورة هي مبنية على الضيافة؛ أي على مفهوم العيش معاً[4].

إذ يلحظ المراقب للأوضاع الدينية العالمية ما شهدته روح الائتلاف في الأديان الإبراهيمية من تقــدّمٍ ملموس في العقود الأخيــرة، بانعقاد جملة من مؤتمرات التقريب والحوار. وقد بات التقاربُ ضرورةً يحسّها أتباع هذه الأديان لا وازعاً خُلقيّاً فحســب ينبغــي أن يتحلّى بــه المرء؛ ففي الســنوات الأخيرة ـ وتحديــداً منذ اعتــلاء البابــا فرنســيس ماريــو برغوليو، رأس الكنيســة الكاثوليكية ـ عاينّا إصراراً من هذه القيادة الدينية على رفض إدانة المغاير الديني واتهام مخزونه الروحي والحضاري. ولمّا اشــتدّ التحشيد على وصم الإسلام بتهمة الإرهاب ـ على مدى العشرية الحالية والعشرية الفائتة ـ شدّد البابا فرنسيس منذ فترة بابويته وفي مناسبات عدّة على تبرئة الإسلام كدين، ووجّه أصابع الاتهام إلى أقليّة مارقة في هذا الدين، وهي أقليّة موجودة في كل الأديان كما أوضح، وقد عبّر ذلك عن تطوّر مهمّ في الوعي المســيحي، وعن خطوة جريئة في تمييز بؤر التوتر بين الأديان[5].

كما كانت لفتةُ البابا فرنسيس إلى مســلمي الروهينغا ـ بتواصله مع وفد من المهجَّرين في بنغلادش في السابع والعشــرين من نوفمبر 2017 ـ عمليّةً رمزيــة قوية في هــذا المســار الائتلافي التحولــي للأديان باتجــاه الجامع الإنساني، بصرف النظر عن اختلاف الدين والمعتقَد. فقد كان الهمّ الإنساني المحفز الرئيس حينها للبابا في لفتته التاريخية. لم تبق المســألة منحصرة بالخطاب الفوقي الصادر من ممثّلي المؤسسات الدينية؛ بل احتشد للأمر جملةٌ

4 ـ انظر الفيلسوف فتحي التريكي في تناوله مفهومي الضيافة والتعايش:
Fathi Triki, «Dignità e Umanità: Una possibile convivenza mediterranea» in *Lumi Sul Mediterraneo* a cura di Antonio Cecere e Antonio Coratti, Jouvence, Milano 2019, p. 36 e s.

5 ـ بشأن التطورات الحاصلة في خطاب البابا فرنسيس، انظر المؤلّفين التاليين:
Papa Francesco Dialogo tra le fedi. Riflessioni sul dialogo interreligioso, A cura di Lucio Coco, Edizioni Messaggero, Padova 2017, p. 55.
Paolo Branca, *Papa Francesco e il Dialogo Cristiani-Islamici*, Cittadella Editrice, Assisi 2017, p.28 e s.

من الكتّاب والمفكّرين وحتى رجال الدين من داخل الأديان للدعوة إلى مراجَعات داخلية، ونقد الذات، من خلال فرز الفكر الصدامي جانباً وعَدِّه محاولات يائسة ومشوّهة لمسار الدين الرحب المستوعِب للمغاير. بدت عمليات التأسيس جادة في إنتاج تأويليات استيعابية تقطع مع نهج التغاير في مراحل سابقة. فالإدراك لوحدة المصير الكوني بات خطاباً مألوفاً على ألسنة كثير من رجال الدين في حديثهم عن الدين الآخر.

وفي الداخل العربي الذي يضمّ تلوّنات دينية عدة ثمّة تحوّلٌ إيجابيّ نحو الائتلاف، من خلال السعي لتجاوز مفهوم الأقلية ـ في مقابل مفهوم الأكثرية ـ إلى مفهوم شامل، ينبني على المواطَنة الجامعة، بمنأى عن دين الأكثرية أو دين الأقلية، وهو تطورٌ إيجابيّ، يسير نحو ترسيخ دعائم الائتلاف داخل الحضارة الواحدة بعيداً عن الهيمنة والغلبة. وفي الراهن الذي نعيشه تتنوع المناقشات في الفكر العربي لمعالجة قضايا حساسة على صلة بموضوع الائتلاف، مثل مواضيع الردة والحرية الدينية والولاية والأحوال الشخصية، وهي قضايا ما كان طرْحُها متيسّراً، لولا توفر مناخ جديد في رؤية الآخر يسير نحو الإيلاف.

يلحظ المراقب للأوضاع الدينية العالمية ما شهدته روح الائتلاف في الأديان الإبراهيمية من تقدّمٍ ملموس في العقود الأخيرة، بانعقاد جملة من مؤتمرات التقريب والحوار. وقد بات التقاربُ ضرورةً يحسّها أتباع هذه الأديان.

تصحيح بوصلة الأديان

يبدو أن تاريخ الحروب والصراعات الدموية ـ التي أريد لها أحياناً أن تتّخذ طابعاً دينياً ـ قد أفرز نوعاً من الوعي بالائتلاف وبضرورته، في ظلّ العولمة الضاغطة على الجميع؛ فقد وجدت الأديان نفسها مجرورة في العديد من المناسبات إلى حروب «سياسات الهوية»، كما يسمّيها عالمُ الاجتماع الإيطالي إنزو باتشي[6]، وهي حروب لا تمتّ إلى تلك الأديان بصلة، وإنّما هي

6 ـ Enzo Pace, *Sociologia delle religioni*, EDB, Bologna 2016, p. 235.

مغامرات جُرّت إليها قسراً دون وعي عميق منها. ربما آخر تلك الحروب المهلكة تلك الحرب المعروفة بحرب البوسنة والهرسك خلال الفترة المتراوحة بين 1992 و1995. لقد وعت الكنائس والمساجد أنها أُدخِلت على غرة إلى مجال أضرّ بها. والسؤال: كيف تؤمّن الأديان نفسها وتتفادى الانزلاق إلى مثل تلك الحروب؟ هو سؤال ثقيل، والإجابة عنه تتطلب مصارحة وجرأة واعترافاً من كافة الأطراف الدينية المسؤولة.

لا شكَّ أن أكثر النزاعات الدينية شدة ـ على المستوى الداخلي للدين في تاريخنا الراهن ـ تحصل داخل المجتمعات التي تعاني من أوضاع اقتصادية واجتماعية صعبة، بما تعرفه من توترات وقلاقل بين مذاهبها وتلوناتها الفقهية والإيمانية. وهي نزاعات تصاعدت بالتزامن مع تفاقم حدّة الصراعات السياسية وطغيان النّزعات القومية والشعبوية. لقد جرى توظيف الرأسمال الديني في تجييش تلك الخصومات بشكل مبالغٍ فيه، وانجرّ إلى تلك اللعبة الخطرة العديدُ من رجال الدين دون تقدير لما تخلّفه من تفتّت داخل العائلة البشرية ومن جروح غائرة. حتى بات لا يتوانى مؤمنون ومتديّنون عن إتيان أبشع المنكرات والجرائم ضدّ إخوانهم في الدين، عبْر تفجير مراقد الأولياء ومقرّات العبادة، واغتيال العابدين الآمنين. العملية كما يفسّر علماء الاجتماع نابعة عن انقلاب في مفهوم القداسة لدى المؤمن، واستحواذ مفهوم العنف المقدّس على المرء سواءٌ أكان بالتضحية بالآخرين أم التضحية بالذات، أي القضاء المبرم على من لا ينتمي للتنظيم الديني أو كذلك إماتة من ينتمي للتنظيم. ففي الحالة الأولى نحن أمام مختلف أنواع الأصوليات الدينية العنيفة، التي تقترف العنف لفرض مبدأ ديني بالقوة، تُقدِّر أنه مستهدَف من عدوّ خارجي؛ وفي الحالة الثانية ندنو من حالة التحمّس للاستشهاد الفردي والجماعي، وهو بمثابة شكل لاختبار عمق الإيمان والانتماء... فحين يدّعي تشكيل اجتماعي/ ديني أنّه الطريق الوحيد والأوحد للخلاص، والقابض على ناصية الحقيقة المطلقة مقابل عالم خارجي يُعَدّ بمثابة مملكة الشرّ، والتهديد الخطير للطهر والحقّ الذي يتصوّر حيازته؛ فإن تطوّر احتمالات تفجّر بذور العنف تصير عالية. ويصير العنف بذلك الشكل مَعِيناً جماعياً في خدمة وحدة

المجموعة، ووسيلة للتحريك الداخلي للمنظمة قبل أن يكون تعبيراً عن روح عدوانية تجاه الخارج[7].

مرّ ما يزيد على السنتين (أكتوبر 2017) على مرور الذكرى المئوية الخامسة لاندلاع الإصلاح البروتستانتي، الذي انجرّت عنه أهوال لحقت بالجسد المسيحي، لعلّ أبرزها حرب الثلاثين سنة (1618/1648م). استمرّ ترميم تلك الآثار الفاجعة إلى الراهن الحالي في مسعى لتحويلها إلى «بلية نافعة». والسؤال: كيف استطاع المسيحيون الغربيون الاستفادة من بلواهم في التاريخ المعاصر؟ يقول وولفغانغ ثونيسن أستاذ علم اللاهوت ومدير معهد المسكونية: اعترف دارسون كاثوليك أن «القراءة الكاثوليكية للُوثر ـ على مدى أربعة قرون ـ قد تأثّرت تأثراً عميقاً بتعليقات جوفاني كوكليو، خصم لوثر ومستشار الدوق جورج الساكسوني؛ فقد صوّر كوكليو لوثر على هيئة راهب مرتدّ، فاسد الخُلق، ومهرطق في الدين». ولكن في ضوء مراجعات تاريخية رصينة، استطاع دارسون كاثوليك تجاوز تلك المقاربة الأحادية لشخص لوثر وأعماله، مدفوعين في ذلك بالحاجة إلى المسكونية، والتخلص من النظرة العقيمة لكون البروتستانت يضمرون عداءً دفيناً لكنيسة روما، ليصوغوا أطروحة فحْواها أن لوثر ما كان يرى في كاثوليكية روما الكاثوليكيةَ المثلى. ووِفق الأطروحة التي صاغها المؤرخ الكاثوليكي جوزيف لورتز، شكّلت طبيعة سيْر الكنيسة ولاهوتها الأساس السلبي الذي أسّس عليه لوثر دعوته للإصلاح. فالمفتاح الرئيس لفهْمِ الاحتجاج اللوثري ينبغي أن يتقصّى فيه المؤرخ أوضاع كنيسة أواخر العصور الوسطى، ويعاين الخلل الذي لحق باللاهوت المسيحي في ذلك العهد[8]. وعقب ذاك

لا شكَّ أن أكثر النزاعات الدينية شدة ـ على المستوى الداخلي للدين في تاريخنا الراهن ـ تحصل داخل المجتمعات التي تعاني من أوضاع اقتصادية واجتماعية صعبة، بما تعرفه من توترات وقلاقل بين مذاهبها وتلوناتها الفقهية والإيمانية.

7 ـ إنزو باتشي وسابينو أكوافيفا، علم الاجتماع الديني، ترجمة: عزالدين عناية، كلمة، أبوظبي 2011، ص 141.

8 ـ Nuova Umanità, 2016/221, Roma.

التحول الذي دبّ في الكاثوليكية، شهد الكردينال جوهانس فيلبراندز (الذي شغل رئيس المجلس البابوي لتعزيز وحدة المسيحيين) شهادة صدق في لوثر، اعترف فيها بعمق تديّنه. ومع البابا يوحنا بولس الثاني ـ ثم في مرحلة لاحقة مع البابا بندكتوس السادس عشر (راتسينغر) ـ اكتملت صورة لوثر الورع؛ سنة 1996 أشاد يوحنا بولس الثاني بدور لوثر في تجديد الكنيسة، ثم أكّد بندكتوس السادس عشر أنّ فكرة الربّ هي مربط الفرس الذي دار حوله لاهوت لوثر، وما كان يجول بخاطره البتة زرع الانقسام في الكنيسة.

لا شكَّ أن التقارب بين الأديان الذي شهده القرن السابق قد مرّ بمراحل هيْمن في بداياتها الارتجال والعفوية، أو بتوصيف أدقّ: طابع عاطفي استند إلى حافز «إيزوتيكي» بدافع اكتشاف الآخر، أكثر منه إلى برامج استراتيجية واضحة، ولعل ذلك ما جعل الفتور سرعان ما يتسرّب إلى كثير من مبادرات التقارب بمجرد ارتفاع تلك الغرائبية. كما لا يخفى أنّ العديد من أشكال التقارب هدفت إلى بلوغ أهداف محدّدة مثل اختراق الآخر، أو توحيد الجهود الدينية لغرض محدّد، مثل السير في خط إيديولوجي مشترك لمجموعة من البلدان، أو إعطاء صورة دعائية عن الذات. لكن ما يُلاحَظ في العقود الأخيرة تطور نضجٍ ـ سواء في حوار الأديان أو في حوار الحضارات ـ بات يدفع لطرح قضايا «ما وراء حوار الأديان» و«ما وراء حوار الحضارات»؛ أي إلى محاولة صياغة أُسسٍ جامعةٍ يمكن أن تكون أُسساً لمؤتلف إنساني شامل.